حقيقة المسلم

للأستاذ مصطفى صادق الرافعي

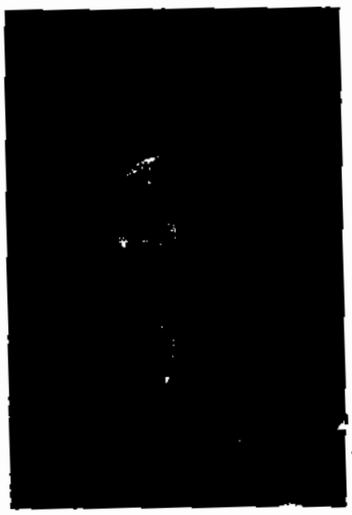

لا يعرف التاريخ غير محمد (صلى الله عليه وسلم) رجلاً أفرغ الله وجوده في الوجود الانساني كله ؛ كما تنصبّ المادة في المادة ، لتمتزج بها ، فتحوّلها ، فتحدث منها الجديد ، فاذا الانسانية تتحوّل به وتنمو ، واذا هو (صلى الله عليه وسلم) وجود سارٍ فيها فما تبرح الانسانية تنمو به وتتحوّل

كان المعنى الآدمي في هذه الانسانية كأنما وَهَنَ من طول الدهر عليه يتحيّفه ويمحوه ويتعاوره بالشر والمنكر ؛ فابتعث الله تاريخ العقل بآدم جديد بدأت به الدنيا في تطوّرها الأعلى من حيث يرتفع الانسان على ذاته ، كما بدأت من حيث يوجد الانسان في ذاته ؛ فكانت الانسانية دهرها بين اثنين : أحدهما فتح لها طريق المجيء من الجنة ، والثاني فتح لها طريق العودة إليها . كان في آدم سرّ وجود الانسانية ، وكان في محمد سرّ كمالها.

* * *

ولهذا سمّى الدين (بالاسلام) ؛ لأنه إسلام النفس إلى واجبها ، أي إلى الحقيقة من الحياة الاجتماعية ؛ كأن المسلم ينكر ذاته فيسلمها إلى الانسانية تصرّفها وتعتملها في كمالها ومعاليها ؛ فلا حظّ له هو من نفسه يمسكها على شهواته ومنافعه ، ولكن للانسانية بها الحظ

وما الاسلام في جملته إلا هذا المبدأ : مبدأ إنكار الذات و(إسلامها) طائعة على المنشط والمكره لفروضها وواجباتها ؛ وكلما نكصت إلى منزعها الحيواني ، أسلمها صاحبها الى وازعها الالهي . وهو أبداً يروضها على هذه الحركة مادام حيًّا ؛ فينتزعها كل يوم من أوهام دنياها ليضعها ما بين يدي حقيقتها الالهية : يروضها على ذلك كل يوم وليلة خمس مرات مسماة في اللغة خمس صلوات ، لا يكون الاسلام إسلاماً بغيرها ؛ فلا غرو كانت الصلاة بهذا المعنى كما وصفها النبي (صلى الله عليه وسلم) : هي عماد الدين

* * *

بين ساعات وساعات في كل مطلع شمس من حياة المسلم صلاة ، أي إسلام النفس إلى الارادة الاجتماعية الشاملة[1] القائمة على الطاعة للفرض الالهي ، وإنكار لمعانيها الذاتية الفانية التي هي مادة الشر في الأرض ، وإقرارها لحظات في حيّز الخير المحض البعيد عن الدنيا وشهواتها وآثامها ومنكراتها . ومعنى ذلك كله تحقيق المسلم لوجود روحه ؛ إذ كانت أعمال الدنيا في جملتها طرقاً تتشتت فيها الأرواح وتتبعثر ، حتى تضل روح الأخ عن روح أخيه فتنكرها ولا تعرفها !

وهذا الوجود الروحي هو مبعث الحالة العقلية التي جاء الاسلام ليهدي الانسانية اليها ؛ حالة السلام الروحاني الذي يجعل حرب الدنيا المهلكة حرباً في خارج النفس لا في داخلها ، ويجعل ثروة الانسان مقدّرة بما يعامل الله والانسانية عليه ؛ فلا يكون ذهبه وفضته ما كتبت عليه الدول « ضرب في مملكة كذا » ، ولكن ما يراه هو قد كتب عليه « صنع في مملكة نفسي » ؛ ومن ثم لا يكون وجوده الاجتماعي للأخذ حسب ، بل للعطاء أيضاً ؛ فان قانون المال هو الجمع ، أما قانون العمل فهو البذل

بالانصراف إلى الصلاة وجمع النية عليها ، يستشعر المسلم أنه حطم الحدود الأرضية المحيطة بنفسه من الزمان والمكان ، وخرج منها إلى روحانية لا يحدّ فيها إلا بالله وحده

وبالقيام في الصلاة ، يحقق المسلم لذاته معنى إفراغ الفكر السامي على الجسم كله ليمتزج بجلال الكون ووقاره ، كأنه

(١) هذه هي حكمة صلاة الجماعة والحث عليها وكونها أفضل من غيرها وأن الثواب الأكبر فيها وحدها .

كائن منتصبٌ مع الكائنات يسبِّح بحمده

وبالتولى شطر القبلة فى سَمْتها الذى لا يتغيّر على اختلاف أوضاع الأرض ، يَعرف المسلمُ حقيقةَ الرمز للمركز الثابت فى روحانية الحياة ؛ فيَحمل قلبُه معنى الاطمئنان والاستقرار على جاذبيّة الدنيا وقَلَقِها

وبالركوع والسجود بين يَدَى الله ، يُشعِر المسلمُ نفسه معنى السُّموّ والرِّفعة على كل ماعدا الخالق من وجود الكون

وبالجلسة فى الصلاة وقراءة التحيات الطيبات ، يكون المسلمُ جالساً فوق الدنيا يحمـــد اللهَ ويُسلم على نبيِّه وملائكته ويشهد ويدعو

وبالتسليم الذى يخرج به من الصلاة يُقبِل المسلمُ على الدنيا وأهلِها إقبالاً جديداً من جهتى السلام والرحمة

هى لحظاتٌ من الحياة كلَّ يوم فى غير أشياء هذه الدنيا ؛ لجمع الشهوات وتقييدها بين وقتٍ وآخر بسلاسلها وأغلالها من حركات الصلاة ، ولتمزيق القناع خمسَ مرّاتٍ كلَّ يوم عن النفس ؛ فيرَى المسلمُ من ورائه حقيقةَ الخلوذ ، فتشعر الروحُ أنها تنمو وتتسع . هى خمسُ صلوات ، وهى كذلك خمسُ مرّاتٍ يفرغ فيها القلبُ مما امتلأ به من الدنيا ، فما أدقَّ وأبدعَ وأصدقَ قولَه صلى الله عليه وسلم : « جُعِلَتْ قُرَّةُ عينى فى الصلاة » (١)

* * *

لم يكن الاسلامُ فى حقيقته إلا إبداعاً للصِّيغة العمليَّة التى تنتظم الانسانيةُ فيها ؛ ولهذا كانت آدابه كلُّها حرّاساً على القلب المؤمن كأنها ملائكةٌ من المعانى ؛ وكان الاسلامُ بها عملاً إصلاحياً وقع به التطوُّرُ فى عالم الغريزة ، فنقله إلى عالم الخلق ، ثم ارتقى بالخُلُق إلى الحقّ ، ثم سما بالحقّ إلى الخير العام ؛ فهو سُموٌّ فوق الحياة بثلاث طبقات ، وتدرُّجٌ إلى الكمال فى ثلاث منازل ، وابتعادٌ عن الأوهام بمسافة ثلاث حقائق

وبتلك الأعمال والآداب كانت الدنيا المسلمةُ التى أسسها النبى (صلى الله عليه وسلم) دنيا أسلمتْ طبيعتُها ، فأصبحت على ما أراد المسلمون لا ما أرادتْ هى ؛ وكأنها قائمة بنواميس من أهلها لا على أهلها ؛ وكان الظاهر أن الاسلام يغزو الأممَ بالعرب ويفتتحها ، ولكن الحقيقة العجيبة أن أقلياً من الدنيا كان يحارب سائرَ أقاليم الأرض بالطبيعة الأخلاقية الجديدة لهذا الدين ؛ وكأن الله تعالى ألقى فى رمال الجزيرة روحَ البحر ، وبعثها بَعْثَه الآلهىّ لأمره ، فكان النبى (صلى الله عليه وسلم) هو نقطةَ المدّ التى يفور البحر منها ، وكان المسلمون أمواجه التى غُسِلتْ بها الدنيا . . .

لهذا سمع المسلمون الأوّلون كلامَ الله تعالى فى كتابه ، وكلامَ رسوله صلى الله عليه وسلم ، لا كما يسمعون القول ، ولكن كما يتلقون الحكم النافذ المقضىّ ؛ ولم يجدوا فيه البلاغةَ وحدها ، بل روعةَ أمرِ السماء فى بلاغة ؛ واتصلوا بنبيهم ، ثم بعضهم ببعض ، لا كما يتصل إنسان بانسان ، بل كما تتصل الأمواجُ بقوة المدّ ، ثم كما يَمُدُّ بعضها بعضاً فى قوةٍ واحدة

وحققوا فى كماله (صلى الله عليه وسلم) وجودَهم النفسىّ ؛ فكانوا من زخارف الحياة وباطلها فى موضع الحقيقة الذى يُرى فيه الشىءُ لا شىْ

ورأوا فى إرادته (صلى الله عليه وسلم) النقطة الثابتة فيما يتضارب من خيالات النفس ، فكانوا أكبر علماء الأخلاق على الأرض ، لا من كتبٍ ولا علمٍ ولا فلسفة ، بل من قلب نبيهم وحده

وعَرفوا به (صلى الله عليه وسلم) تمامَ الرجولة ؛ ومتى تمت هذه الرجولةُ تمامَها فى إنسان رجعتْ له الطفولةُ فى روحه ، وامتلك تلك الطبيعةَ التى لا يملكها إلا أعظمُ الفلاسفة والحكماء ، فأصبحَ كأنما يمشى فى الحياة الى الجنة بخطواتٍ مُسدَّدةٍ لا تزيغ ولا تنحرف فلا شرَّ ولا رذيلة ، ودنياه هى الدنيا كلُّها بشمسها وقمرها ، يملكها وإن لم يملك منها شيئاً مادامت فى قلبه طبيعةُ السرور ، فلا فقرَ ولا غنى مما يشعر الناسُ بمعانيه ، بل كلُّ ما أمكن فهو غنىٌّ كامل ، إذ لم تعُد القوةُ فى المادة تزيد بزيادتها وتنقص بنقصها ، بل القوةُ فى الروح التى تتصرف بطبيعة الوجود ، وتدفع قُوَى الجسم بمثل دوافع الطفولة الناميـــة المتغلِّبة ، حتى لتجعل من النور والهواء ما يُؤتدَمُ به مع الخبز

(١) كان النبى (صلى الله عليه وسلم) يستبطئ الصلاة وقد جاء وقتها ، من شدة شوقه اليها فيقول : « أرحنا بها يا بلال » ولا أفصح ولا أدق فى تصوير نفسيته (صلى الله عليه وسلم) وأشواق روحه العالية من قوله أرحنا بها . فهذا كمال الاتصال بينه وبين خالقه

القَـفار ، كما يؤتَدَمُ باللحم وأطايبِ الأطعمة[١]

وبذلك لاتتسلَّط ضرورةٌ على الجسم — كالجوع والفقر والألم ونحوها — إلا كان تَسلُّطها كأنه أمرٌ من قوةٍ في الوجود الى قوةٍ في هذا الجسم أن تَظهرَ لتعملَ عملها المُعجز في إبطال هذه الضرورة . وهذا الجنس من الناس كالأزهار على أغصانها الخضْر ؛ لو قالت شيئاً لقالت : « إن ثروتى فى الحياة هى الحياةُ نفسها ، فليس لى فقرٌ ولا غنى ، بل طبيعةٌ أوْ لا طبيعة . . »

***

ولقد كان المسلم يُضْرب بالسيف في سبيل الله ، فتَقَعُ ضَرَباتُ السيوف على جسمه فتُمَزِّقُه ؛ فما يُحسها إلا كأنها قُبَلُ أصدقاء من الملائكة يَلْقَوْنه ويعانقونه !

وكان يبْتَلى فى نفسه وماله ، فلا يشعر فى ذلك أنه المُرْزَأُ المُبْتَلى يُشْرِقُ فيه الحزنُ والانكسار ، بل تظهر فيه الانسانيةُ المنتصرةُ كما يَظهر التاريخُ الظافرُ فى بطلٍ عظيم أصيبَ في كلِّ موضعٍ من جسمه بجراح ، فهى جراحٌ وتشويهٌ وألم ، وهى شهادةُ النصر !

ولم تكن أثقالُ المسلم من دنياه أثقالاً على نفسه ، بل كانت له أسباب قوةٍ وسمُو ؛ كالنَّسر المخلوق لطبقات الجوّ العليا ، يحمل دائماً من أجل هذه الطبقات ثقل جناحيه العظيمين

وكانت الحقيقةُ التي جعلها النبيُّ (صلى الله عليه وسلم) مَثَلهم الأعلى ، وأقرَّها فى أنفسهم بجميع أخلاقه وأعماله — أن الفضائل كلَّها واجبةٌ على كل مسلم لنفسه ، إذ أنها واجبة بكل مسلم على غيره ؛ فلا تكون فى الأمة إلا إرادة واحدة متعاونة ، تجعل المسلم وما هو إلا روحُ أمته تعمل به أعمالها هى لا أعماله وحدها ؛ المسلم إنسانٌ ممتدٌّ بمنافعه فى معناه الاجتماعى حول أمته كلِّها ، لا إنسانٌ ضيِّقٌ مجتمعٌ حول نفسه بهذه المنافع ؛ وهو من غيره فى صدقِ المعاملة الاجتماعية كالتاجر من التاجر : تقول الأمانةُ لكليهما : «لاقيمةَ لميزانك إلاأن يصدِّقه ميزان أخيك..»

ولن يكون الاسلام صحيحاً تاماً حتى يجعلَ حاملَه مثلاً من نبيِّه فى أخلاق الله ؛ فما هو بشخص يضبط طبيعته ، يقهرها مرةً وتقهره مراراً ؛ ولكن طبيعةٌ تضبط شخصها فهى قانون وجوده ؛ لا يضطرب من شئ ، وكيف يضطرب ومعه الاستقرار ؟ لا يخاف من شى ، وكيف يخاف ومعه الطمأنينة ؟ لا يخشى مخلوقاً ، وكيف يخشى ومعه الله ؟

أيها الأسد ، هل أنت بجملتك إلا فى طبيعةِ مخالبك وأنيابك . . . ؟!؟

طنطا

مصطفى صادق الرافعى

(١) عن ابن عباس قال : دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم فتح مكة على (أم هانىء) وكان جائعاً ، فقال لها : «أعندك طعام آكله ؟ » فقالت : « إن عندى لكسراً يابسة ، وإنى لأستحي أن أقدمها اليك » فقال : « هلميها ! » ، فكسرها فى ماء ، وجاءته بملح ، فقال : « ما من إدام ؟ » فقالت : « ما عندى إلا شىء من خل » فقال : « هلميه » فلما جاءت به صبه على طعامه ، فأكل منه ثم حمد الله وأثنى عليه ، ثم قال : « نعم الادام الخل يا أم هانىء ، لايقفر بيت فيه خل » ا . هـ .

لجنة التأليف والترجمة والنشر

السلسلة الفلسفية

اعتزمت لجنة التأليف والترجمة والنشر اخراج سلسلة فلسفية تقدم للقراء تاريخ الفلسفة فى مختلف عصورها من فلسفة يونانية واسلامية وحديثة ، كما تقدم لهم خلاصة للمذاهب الفلسفية ، وتراجم مشاهير الفلاسفة بأسلوب سهل
وسيشرف على هذا العمل الأستاذ (أحمد أمين)
وستخرج السلسلة فى فترات متعاقبة

وستكون باكورتها

قصة الفلسفة اليونانية

للأستاذين : أحمد أمين وزكى نجيب محمود

يقع الكتاب فى نحو ٣٦٠ صفحة ويبحث فى الفلسفة اليونانية من أول عهدها إلى آخر الأفلاطونية الحديثة ويعرضها فى شكل واضح جذاب أشبه مايكون بالقصة — قد حلى بصور كثيرة لمشاهير الفلاسفة ومدارس الفلسفة

يصدر اليوم

(ويطلب من لجنة التأليف والمكاتب الشهيرة)